

منهج الامام علي بن ابي طالب في تطبيق العدالة

أ . د . سامي جودة الزبيدي

جامعة ذي قار / مركز ذي قار للدراسات التاريخية والآثرية (العراق)

تاريخ النشر: 2024/04/01

تاريخ القبول 2023 / 09/ 29

تاريخ الاستلام: 2023/09/05

ملخص:

سوف يتطرق هذا البحث الى جملة من الامور التي سعى الامام علي بن ابي طالب الى تطبيقها ، بغية تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية الإنسانية . فبدأ اولاً بذاته ، فروضها ، فكانت ذات مطيعة له يقودها صاغرة ، فساح بها في ساحة الزهد والتقشف حتى اعتادت على المجاهدة ، فطلق الدنيا بما فيها كونه كان يرى انها زائلة . كما سوف يظهر من خلال المقال ، كيف يتشدد علي على الحرية ويعدها مفتاحاً للعدالة الانسانية ، وكان يرى ان العدالة لا يمكن ان تقوم دون وجود حكام عادلين . كما يوضح البحث سياسة علي مع الرعية وهو يضع قواعد لذلك . كما صاغ الامام علي مبدأ سياسي جديد في تطبيق العدالة ، مبدأ (ابوية الدولة) حيث نظر الى الناس نظرة واحدة لا تفريق بينهم . وسعى كذلك الى رعاية طبقة المهمشين وهم الفقراء ، وقد ساوى بين الجميع في العطاء وهي اول تجربة اسلامية اشتراكية في الاسلام ، كما سعى الى رسم خارطة السلطة في ادارة الدولة .

كلمات مفتاحية: منهج – الامام ، تطبيق ، العدالة

Abstract:

This research will address a number of issues that Imam Ali bin Abi Talib sought to implement in order to achieve the principle of human social justice. So he started first with himself, imposing on her, so she was obedient to him, leading her submissively, so he allowed her in the arena of asceticism and austerity until she became accustomed to striving, so he divorced the world including what he saw as fleeting. As it will appear through the article, how Ali insists on freedom and considers it a key to human justice, and he believed that justice could not be established without the presence of just rulers. The research also explains Ali's policy with the subjects, and he sets rules for that. Imam Ali also formulated a new political principle in the application of justice, the principle of (the patriarchy of the state), whereby he looked at the people with one view, without discriminating between them. He also sought to take care of the marginalized class, who are the poor, and he made everyone equal in giving, which is the first Islamic socialist experience in Islam. He also sought to draw a map of power in the administration of the state

Keywords: Methodology - Imam, application, justice

1- مقدمة

ليس جديداً البحث في شخصية الإمام علي بن ابي طالب فقد كتبت أقلاماً كثيرة ، حتى نفذ مدادها وما نفذ معين علي الإنساني ، فكل يوم يمر واثر ابن ابي طالب يتجدد عطاء زاخراً بمعانيه ويتحرك مع حركة المجتمع وكأن أحداثه واقعة آنية ، لم يتقادم عليها الزمن ، بل ان إنتاجها لم يستطع ان ينتج الحكام للبشرية فظل حياً لنا رطباً يلامس الإحساس ويتدفق جرياناً يتغذى منه المحرومون أملاً ، ويحمله الثائرون شعاراً . أنتج عطاء الإمام مجتمع يحلم بالحرية ، يحلم بالأمن والسلام في التعايش السلمي .

لم يكن الإمام بعيداً عن الواقع فقد كان جزءاً من ذلك الواقع يتحسس آلامه ومعاناته ويحمل هممه ، لم يحط نفسه بأسیجة التعالي والترفع السلطوي على الناس ، كان واحداً منهم يمر عليه ما يمر عليهم ، يشعر فقر فقيرهم وجوع الجائع فيهم ، لم يغادر المحيط الاجتماعي تعايش معه بروح الأبوة وإحساس المسؤول الذي يخشى على أبنائه عادات الزمن ، لذا سجل مظهره وسلوكه وفعله تلك المعاناة والمحرومية كجزء من هم اجتماعي مشترك بين الرئيس ومرؤوسيه ، تجربة لم تتكرر بعد لذا شكلت بحق عنواناً للعدالة الاجتماعية ، وتجربة اشترك فيها الواقع والمثال ، صورة حية تتحرك في كل زمان ومكان وتصلح شعاراً وتجربة وثورة بوجه الظلمة والمستبدین ، هي مدرسة في السلوك البشري ومنهج لتدريب الحكام على إتقان فن الحكم وإدارة الحكومة الأبوية ، وليس التسلطية الاستبدادية التي يكون الشعب فيها عبداً كله ، والحاكم حراً لوحده .

الذات في شخصية علي :

لم نأتي بالجديد ، إنما الجديد إننا سوف نتجول معاً في مدرسة الإمام علي نستق منها معاني الإنسانية لتتحسس جوهر الوجود الذي حرمننا منه (آنا) الحكام والظلمة ، الجديد إننا سوف نشعر بإنسانيتنا بوجودنا بأهمية الوجود ، سوف نشاهد مسرحاً إنسانياً حياً يدير بطولة أدواره شخصية عجز الكل عن ان يكونوا مثله ، ليس لأنه خلق هكذا ، ولكنه كان مثالياً بحق مجرد نفسه من تعاليها واستطاع ان يروضها على طاعته ، فانقادت له ، ولم ينقاد لها ، لذا تبعته صاغرة بعد ان فرض عليها شرطه وأعلنه عليها صراحة فرضت به فكان علي لا تتصارع فيه الأضداد بين ان يسلك الحق أو الباطل في موقفه ، ففي كل المواقف مثالياً لان في يده مقود نفسه ، درهماً على إتقان منهج الحق فما كانت ملذات الدنيا تشكل لديه هما ، وهو العالم بنهاية الأمور بعين اليقين لذا كان منهجه الأول في التعامل بين نفسه ومحيطه بقوله : (والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجر في الأغلال مصفداً ، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصبا لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حلولها؟)⁽¹⁾ .

عنون الإمام حياته بعناوين الانسانية ، وروض النفس على تقبل العطاء دون الاخذ ، وطلق الملذات من حوله ليتفرغ لمسؤوليته الجسيمة التي ما تركت الإمام يهنئ براحة الحياة كيف يكون ذلك وهي طليقته : (يا دنيا يا دنيا

إليك عني، أبي تعرضت ،أم إلي تشوقت : لاحان حينك هيهات غري غيري . لا حاجة لي فيك . قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعيشك قصير، وخطرك يسير ،وأملك حقير، آه من قلة الزاد ،وطول الطريق ،وبعد السفر ،وعظيم المورد⁽²⁾ هذه كانت تأوهات علي لأنه يعلم خطورة المسؤولية وثقل حملها ، مسؤولية تحتاج الى المخلص الذي يطلق الدنيا بما فيها كي يتخطى وعورة الطريق الطويل وقلة الصالحات وعظم المسؤولية ، التي ما قدر عظمها الا الإمام علي .

الحرية مفتاح للعدالة :

ركز الإمام علي على تحقيق العدالة الاجتماعية واعطى لها الاولوية في التنفيذ اذا كان يعلم ان العدالة مفتاح لدخول الحقوق الاخرى فلو انعدمت العدالة في المجتمع لانعدم ما دونها لذا شدد على تحقيقها منطلقا من كون الناس جميعا احرارا يولدون ويموتون ، وليس من حق أي كان ان يسلبهم هذا الحق فقد قال : (أبها الناس ! إن آدم لم يلد عبدا ولا أمة ، وإن الناس كلهم احرارا)⁽³⁾ وشدد على ان يكون الناس احرارا في عبادتهم ، كما شدد على قضية مهمة هو انجرار الناس الى بعضهم حتى يصل بعضهم الى ان يتنازل عن حريته الى اخر فيكون في موضع العبودية ، فيفقد غاية وجوده ليتحول الى مسلوب الارادة ، وقد يتمثل ذلك في خضوع الناس الى الحكام الظلمة الذين يسلبون الناس حرياتهم ويحولونهم الى عبيد وجواري ، ليصبحوا هم اسياذ واحرارا بينما يعاني الناس الذل والهوان ، وكل ما تقادم الزمن كلما رضخ المجتمع وتسيد الحكام وذلت الرقاب وخنعت النفوس وفقدت معنى وجودها لتتحول الى قطع يسوقه الجبارة الى الذبح والتضحية به في ساحات صراعها الذي لا ينتهي لأنه مبني على الانا المتفردة الراضفة لغيرها ، فنجد الإمام علي يحذر من وقوع الانسان في موقع العبودية لغير الله : (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا)⁽⁴⁾.

الحرية التي نشدها الإمام للناس هي حرية كاملة ليست منقوصة في بعض اجزاءها فالحر من يستطيع ان يرى الحق ويتبعه ، ويرى الباطل ويتجنبه او يصارعه ليحوه الى الحق ، حرية يجد الانسان انه انسانا له موقفا وله معنى وجودي ينبغي له تحقيقه ، وليست الحرية ، ممارسات فوضوية خالية من المعاني والمفاهيم او عبثية محيطها اللهو وضياح الغاية ، هي انجاب لمعاني وثبات لمبادئ ، هي تفاعل اجتماعي وتعايش وحدوي هي هم مشترك وايلاد معنوي لحياة كريمة يسودها الحق والعدالة ، والا كانت عبودية صرفة وان كان صاحبها حرا في تصرفاته ، انطلاقا من هذه المعاني كان خطاب الإمام عليه السلام للناس : (بعد سماعه لأمر الحكيمين - أف لكم ! لقد لقيت منكم برحا يوما أناديكم ، ويوما أناجيكم ؛ فلا بأحرار صدق عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء)⁽⁵⁾ . وقال في موضع آخر : (من قام بشرائط العبودية أهل للعتق . من قصر عن أحكام الحرية أعيد إلى الرق)⁽⁶⁾ فللحرية في منظور الإمام احكامها وللعبودية شروطها ، وينبغي للإنسان اتباع الاحكام والشروط هم نقيضين فالتقصير في احكام الحرية يحول الانسان الى النقيض ، واتقان الشرط في العبودية يحوله الى الحرية ، معادلة

اجتماعية يطرحها الإمام ليرسم من خلالها عنوان كبيرا لمتبعي الحق ، والاحرار الذين يرفضون العبودية بأشكالها والوانها الباهتة ، ليختاروا الوان الطيف الابهى الوان الخلاص من قيود النفس اولا وقيود الناس ثانيا .

العدالة في منظور علي :

لقد شكلت العدالة في منظور عليّ هاجسا حيا يتفاعل معه ، ويسعى الى تحقيقه ويشدد على المشتغلين معه في اتباع العدالة وتنشيط مفاصلها ، يوجههم في ذلك ويراقبهم عليه ، يعزلم اذا قصروا ، ويشيد بهم اذا تبعوا منهج الحق في ذلك ، لذا لم ينشغل فكر الإمام في شيء بقدر انشغاله في موضوع العدل والانصاف وتطبيق برنامج المساواة ، فالناس في منظوره متساوون في الحقوق والواجبات ، احرازا ولدوا ويموتون وليس من حق احد استعباد احد او سلب كرامته ، فالعدل ميزان تستقام عليه المساواة وتتساوى فيه الناس ، هذا كان منهج الإمام في التشدد على الحكام والولاة الذين كانوا في دائرة نفوذه والمشتغلين على برنامجه الانساني في تطبيق العدل الاجتماعي ، في عهده إلى مالك الأشر: (وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية . . . إن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية)⁽⁷⁾ .

ان اقامة العدل تستوجب وجود ائمة عدل وحكام يطبقون مبادئ العدل ، يتعدون عن هوى النفس ، والانجرار الى شباكها التي ما ان امسكت بشخص الا القته فريسة للمذات ، فيهون امامه كل شيء ، يضيع الحق ويختلط عليه التمييز ، لضياح التركيز ، لأنه غادر دائرة العدل الى دائرة الظلم ، التي يعيش داخلها ، فليس غير لون ورائحة الذات المنتفخة على الآخرين ، لا يميز هناك بين صوت المترفين وانين الجائعين ، لذا كان الإمام (ع) يراقب عماله حارصا على عدم مغادرة ادهم دائرة العدل ليقع فريسة لنفسه الامارة بالسوء ، كان ينبههم الهوى ، ويحذرهم الظلم ، في كتابه إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان - : (أما بعد ، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل ، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء ؛ فإنه ليس في الجور عوض من العدل ، فاجتنب ما تنكر أمثاله)⁽⁸⁾ .

ولكي تطبق العدالة لابد ان يتساوى الناس في الحقوق ، لكن منظور الإمام لتطبيق العدالة ينطلق من كون المساواة لا تتحدد بالمساواة في المعيشة والرزق فحسب انما يتعداه الى انصاف الناس في كل شيء من قبل الحكام لان الحاكم العادل لابد ان يكون مجتمعه عادلا ، لانها انعكاسا لتصرفاته في امور رعيته ، شدد الإمام انطلاقا من هذا المفهوم والمعنى على تطبيق المساواة في كل شيء كي يشعر الناس بالعدل ويسود المجتمع مظاهر الحق والعدل والمساواة ، فقد كتب الإمام عهدا الى محمد بن ابي بكر حين قلده مصر هو بمثابة برنامج عمل لتطبيق مبدأ العدالة الانسانية : (فاخض لهم جناحك ، وألن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا يبأس الضعفاء من عدلك عليهم...)⁽⁹⁾ . هذا المفهوم الاجتماعي في العدالة مارسه الإمام قولاً وعملاً ولم يدخر قوة في تحقيقه فكان مشروعة في المساواة مشروعا انسانيا ، لأنه اعتبر

الميل عن السوية جورا وانحرافا عن الحق ، وقد تجسد ذلك بقوله لما عوتب على التسوية في العطاء - (: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه ! ... لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله) (10) .

سياسة الرعية في منظور علي :

وضع الإمام مبادئ مهمة لسياسة الرعية على الحاكم ان يطبقها ليصل بها الى تطبيق العدل وتحقيق الاستقرار الذي ينشده الجميع ، ولذا نجده يرسم الخطوط الواضحة لعماله في سياسة الناس ، اذ اشار الى ان الحاكم اكثر مسؤولية من غيره ، لذا وجب عليه ان يكون احرصهم ، على ان يستشعر فقرهم وآلمهم ، فيكون ملبسه وطعامه بمستوى افقرهم في رعيته وهذا المعنى نجده في قوله (ع) : (ان الله تعالى فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبغ بالفقير فقره) (11) . وكان علي يرفض ان يسكن دار الامارة وإنما سكن دارا بقربها من الطين ، وكان يرد على من يسأله عن ذلك بقوله : (أأبيت مبطانا وحوالي اكباد غرثي ، وبطون حري ، أأقنع من نفسي ان يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم مكاره الدهر) (12) .

لم يقف تطبيق العدالة عند هذا الحد انما تعداه الى امور اخرى قد يغض النظر عنها ، لكن الإمام (ع) كان يعتبرها جوهرية في حفظ الحقوق ، فلم يكن المحسن والمسيء في منزلة واحدة عند الإمام انما حرص على التفريق بينهم وحث ولاته على التمييز بينهم ، حيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء لان في ذلك حفاظا للحقوق ، ولكي لا يتمادى في تكرارها فتهدم حقوق الناس ويتجاوز على كرامتها ، لذا تجسد هذا المعنى في وصايا الإمام الى ولاته : (لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فان في ذلك تزهيدا لأهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لأهل الاساءة على الاساءة ، والزام كل منهم ما الزم نفسه) (13) . و اشار الى ولاته بوجود الانصاف وعدم التعدي على حقوق الناس والتجاوز على حرياتهم واستخدام السلطة استخدام غير عادل والانحراف بها عن مبادئ الشريعة الاسلامية فقد جاء في عهده لعماله : (انصف الله ، وانصف الناس من نفسك ، ومن خاصة اهلك ومن لك فيه هوى من رعيته فانك الا تفعل تظلم) (14) .

هذه الوصية لم تكن مجرد وصية يبعث بها الإمام الى ولاته انما كان يتابعها بنفسه ويحث على تطبيقها ويعزل من لم يتحلى بهذه الصفات اذ انها شروط العامل العادل الذي يسعى الإمام الى ايجاده ووضعه في موضعه ، لذا كان نفسه السباق الى تطبيق هذه المبادئ العادلة ، فلم يكن يفرق في الحق بين من معه ومن عليه ، غايته احقاق الحق وتطبيق العدالة والجميع متساوون في حكومة الإمام ، ليس معيار قياسه انت معي وذاك علي ، انما القياس انت مع الحق ، وذاك على الباطل والحق والباطل في منظوره ، ليس القرب منه او الابتعاد عنه ، انما حفظ حقوق الناس وعدم التعدي عليها جاء جعدة بن هبيرة الى علي فقال : يا أمير المؤمنين ، يأتيك الرجلان إن أنت أحب إلى أحدهما من نفسه - أو من أهله وماله - والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ، فتقتضي لهذا على هذا ؟ قال فلهزه علي وقال : إن هذا شيء لو كان لي فعلت ، ولكن إنما ذا شيء لله (15) .

تطبيق مبدأ ابوية الدولة :

نظر الإمام الى الجميع نظرة الأبوة التي لا تفرق بين الاولاد مع انه حريص على تغيير سلوك المنحرف منهم ، وارجاعه الى جادة الصواب فان نجح في اعادته دون ضرر فعل وان وجب ان يعاقبه حرصا عليه فعل . لذا كان منهج الإمام الحرص على عدم الظلم وتوخي الحذر في التطبيق ، فلم يسمح الإمام لنفسه بالظلم وان كان ذلك بسيطا لا يستوجب ضررا لكنه يدخل دائرة الظلم ، قد تتسع يوما فلا يدري الظالم ان ذاك ظلما لأنه تطبع عليه وصار جبلة له وسلوكا ، يشعر من خلاله ان الناس تظلمه لذا يدفع ظلمهم له بظلمه لهم . كان الإمام حريصا على حفظ الحقوق وان تكن بسيطة ليست ذات اهمية تذكر لكنها حقوق واجبة الحفظ والرعاية : (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في ثملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى) (16) .

لم يفرق الإمام عليه السلام بين رعيته على اساس الانتماء والعقيدة فقد شكلت المواطنة غايته في سياسة الناس فلم يكن الاختلاف يزعج الإمام ما دامت المواطنة جامعا كليا للامة ، فكل ما عداها يدخل دائرة الجزئية والفرعية المحددة التي لا يمكن لها ان تكون مقياسا لوجودية الانسان على الارض ، فالناس في منظوره متساوون على اساس العطاء والتفاعل الانساني فمقدار ما يقدمه الانسان للامة يكون مقدار لاحترامه وحفظ وجوده على اساس التعايش السلمي وهذا المعنى يجسده في عهده لمالك الاشر عندما ولاه مصر قائلا : (وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتتم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق) (17) . ان التوحش صفة لا زمت الحكام في تاريخنا ولعلها كانت ظاهرة مميزة ، فالنادر ان نجد من كان يشعر قلبه رحمة للناس وعطفا عليهم ، لذا اراد الإمام ان يضع منهجا للحكام ان الرعية وان اختلفت انتماءاتهم وعقائدهم فان الجامع الانساني يجعلهم في الامة اخوة ينشأ بينهم التعايش والتفاعل ، فان كان النظام عادلا سادت العدالة وانتشر الحق وتقلص الظلم حتى يختفي ، لذا أكد الإمام على عدالة الحاكم وان لا يكون جائرا سبعا ضاريا يتحين الفرص برعيته لينقض عليهم انقضاض الوحش على فريسته ، حاول من خلال ذلك أنسنة المجتمع وتحويله الى مجتمع يسوده الحب والخير والجمال .

حرص الإمام على تطبيق مبدأ العدالة بين الناس من خلال محاربة الظلم واخذ الحق من الظالمين وارجاعه الى اصحابه ، لذا لم يترك مناسبة الا واعلن فيها انه يسعى الى تطبيق مبدأ احقاق الحق وان انكره عليه الناس لان الحق طريق موحش وعر يتطلب من سالكيه الصبر والتحمل ، كما يتطلب من الناس اعانة الإمام على تنفيذ العدالة لان تطبيق العدالة هم مشترك فالظلم الاجتماع يلحق الجميع لا يميز بين انسان وآخر لذا قال (ع) : (أيها الناس ! أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودان الظالم بخزامتته ، حتى أوردنه منهل الحق وإن كان كارها) (18) .

الظلم شغلٌ شاغل في فكر الإمام علي اذ ان الخلاص من الظلم يعني تحقيقي مستوى عال من العدالة، والظلم لا يتحقق الا بسلطتي القوة والغنى فهما وحدهما القادران على سلب الحقوق ، لذا حرص الإمام على تسوية هذا

الامر ، معلنا ان القوة والضعف تعتمد على الحق ، فالذليل عزيز مادام مسلوب الحق حتى يعاد الحق اليه ، والقوي ضعيفا مادام سالبا للحق حتى يعاد الحق منه (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) (19) . الواضح ان الحق هو الفيصل في الحكم على القوة والضعف ولم يشخصن الإمام الظالم ، انما حدد موقفا يكون فيه الظالم ظالما ، وقد يكون يوما مظلوما ان سلب منه الحق .

المهمشين في منظور عدالة علي :

لقد عمل الإمام في دائرة مهمة لطالما تركها الحكام هي دائرة الفقراء والمحرومين لذا كان الإمام ينظر اليهم نظرة الحريص على تضيق مساحة الفقر، ورفع مستواهم المعيشي ، لأنه يعلم ان الفقر يمكن ان يسبب تدهورا اخلاقيا وانحطاطا نفسيا ، لذا عمل منذ الساعات الاولى من تسنمه الخلافة على ايقاف تضخم الثروات بسبب التمييز في توزيع الثروة الذي سبب فوارق طبقية بين ابناء المجتمع ، فصارت طبقة تملك المال الذي يكسر بالفؤوس ، وطبقة لا تملك ثوبا تلبسه . لذا كان الإمام من الوهلة الاولى يعلن القسمة بالسوية ، وان الناس متساوون في الثروة لا يمكن لاحد ان يحصل على اكثر من غيره في العطاء مادام الجميع يخضعون لقانون المواطنة ، لذا حرص على اعادة الثروة الى اصحابها ، تلك الثروة التي استولى عليها البعض بسلطة القرابة والمحسوبية وان تفرقت وتقادم عليها الزمن ، فقد اعلن الإمام برنامجه الاول لمحاربة الفساد المالي واعادة الحق الى اصحابه : (ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته وقد تزوج به النساء ، وفرق في البلدان ، لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق) (20) .

لم يكتف الإمام بهذه المعالجة انما اراد علاجا جذريا للفقر من خلال انصافهم والصراف عليهم من بيت المال ومتابعة اليتامى والارامل منهم ، لانهم اهل بؤس وشقاء لذا توجب على الحكومة توفير معاشهم ومراعاة ظروفهم ، فكان الخليفة علي يعهد لعماله بذلك فقد اوصاهم بذلك قائلا : (ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني ، فإن في هذه الطبقة فائعا ومعترأ . واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه ، ولا يشغلنك عنهم بطر ، فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم . فلا تشخص همك عنهم ولا تصعّر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ، ممن تقحمه العيون وتحقره الرجال . ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ، ثم أعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فإن هؤلاء ، من بين الرعية ، أحوج إلى الإنصاف من غيرهم... وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن ، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه) (21) . اراد الإمام ان يتجاوز الخطاب الاعلامي الى التطبيق العملي لتغير الواقع بالإمكانات المتاحة لان الفقير عندما يجد امامه الضمانات الواقعية والقانونية ، سوف يستشعر الوجود لذاته ويطمأن ضميره ، وسوف لن يكون في حاجة الى

التهافتات الاعلامية ، وقد لمس واقعا متجسدا بعدالة المساواة في الحقوق ، مما سوف يدفعه مستقبلا الى عدم الرضوخ اذا عاد به الزمن الى التفاوت في العطاء . كما ان الغني سوف يستشعر العدالة فيما بعد لوجود الضمانات التي تدفع عنه الظلم والجور وتحفظ له الحقوق. فقد قال : (لا يقولن رجال منكم غدا قد غمركم الدنيا ، فاتخذوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارحة ، واتخذوا الوصائف الروقة ، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إن لم يغفر لهم الغفار ، إذا منعوا ماكانوا فيه ، وصيروا إلى حقوقهم التي يعلمون ، يقولون : حرمننا ابن أبي طالب ، وظلمنا حقوقنا ، ونستعين بالله ونستغفره ، وأما من كان له فضل وسابقة منكم ، فإنما أجره فيه على الله ، فمن استجاب لله ولرسوله ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده) (22) .

جاء علي ليرد التصور الاسلامي للحكم، الى نفوس الحكام ونفوس الناس . جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : ((لا احب ان يدخل بطني الا ما اعلم)) . وربما باع سيفه ليشتري بثمانه الكساء والطعام ، وكره ان ينزل القصر الابيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء(23). جاء ليعيش كما روى عنه النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علي عليه السلام ، فاذا بين يديه لبن حامض ، آذنتي حموضته ؛ وكسر يابسة . فقلت : (يا امير المؤمنين ! أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل ايس من هذا ويلبس اخشن من هذا - وأشار الى ثيابه - فأن لم اخذ بما اخذ به خفت الا الحق به) (24) او كما روى عنه هارون بن عنتره عن ابيه قال : دخلت على علي بالخورنق ، وهو فصل شتاء ، وعليه خلق قطيفة ، وهو يردد فيه ، فقلت يا امير المؤمنين ! ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذه المال نصيبا ، وانت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : (والله ما ارزؤكم شيئا ، وما هي الا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة) (25) .

السلطة في منظور علي :

لقد شكل حفظ الحقوق هاجسا عند الإمام حتى انه لم يكن يأخذ حقه من بيت مال المسلمين ولذا نرى انه يبيع سيفه ليلبس ويأكل ، مع ان له الحق فيه كما لغيره لكنه كان يأثر المسلمين على نفسه ، وكان يعتبر خروجه من الكوفة بغير ما دخل اليها خيانة يحاسبه الله عليه فقد قال : (يا أهل الكوفة إذا أن اخرجت من عندكم بغير رحلي وراحلي وغلامي فأنا خائن) (26) . وكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة من يبيع وكان يطعم الناس الخبز واللحم ويأكل من الثريد بالزيت ويكللها بالتمر من العجوة ، وكان ذلك طعامه وكان يقسم ما في بيت المال فلا يأتي الجمعة وفي بيت المال شيء ، ويأمر ببيت المال في كل عشية خميس فينضح بالماء ثم يصلي فيه ركعتين وأنه كان يقول ويضع يده على بطنه : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا تنطوي ثميلتي على قلة من خيانة ، ولا اخرجن منها خميصا . (27).

وضع الإمام علي برنامجا اجتماعيا ضخما لسياسة الامة فكان رائدا للعدالة الاجتماعية ، بما انطوى عليه برنامجه من تحقيق العدالة ، والتي انعكست على الامة فكانت معطياتها ايجابية وتحولاتها انسانية ، ادت بالامة الى فهم ادوارها ، وتعين مركزها ، وعدم التسامح عند ضياع حقوقها والتهاون في سلب كرامتها . لم يفرق بين رعيته فكان الجميع على خط واحد من الحقوق فقد روي ، إن امرأتين أتتا عليا - عليه السلام - عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى من الموالي ، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهما وكرا من طعام ، فقالت العربية : يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم؟! فقال(ع) والله لا أجد لبي إسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني إسحاق(28).

العدل سهل في العبارات والانشاءات اللفظية ، كذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة . انما هو صعب ، بالغ الصعوبة ، في التطبيق المتكامل . فقد يعرف الانسان قيمة العدل لصالح نفسه ، لا عليها . وقد يعرفها في الحدود الفردية ، لا في الحلول الاجتماعية . وهكذا ظلت قضية العدل اصعب القضايا على مستوى التطبيق ، على النفس وعلى الآخرين سواسية .

وعدل علي بن ابي طالب النابع من صلب العدل المحمدي ، هو المثال الانساني الخالد في التعبير عن (كلية العدل) ووحدة فروعه : في الافكار ، وفي الممارسة ، وفي العلاقة ، على الصعيدين الفردي والجماعي (29).

لم تكن السلطة شغل الإمام الشاغل ، بقدر كونها اداة ينطلق من خلالها الى تدارك وضع الامة وتصحيح شأنها وحل مشكلاتها وتجاوز نكباتها وقد استطاع الإمام التخلص من ضغط السلطة وجبروتها وطغيانها ، اذ صار مركز للامة ومحورا لقضاياها وهمومها ، وكان يرى ضرورة ان يكون الماسك بالسلطة ، يتبنى مشروع العدل واحقاق الحق وان كان على نفسه او اقرب الناس اليه ، فقد سأله ابن اخيه عبد الله بن جعفر : يا امير المؤمنين لو امرت لي بمعونة او نفقة ، فو الله مالي نفقة الا ان ابيع دابتي ، فأجابه علي لا والله ما لك شيئا الا ان تأمر عمك ان يسرق فيعطيك (30) .

مثل العدل في منظور الإمام الجوهر الذي يسعى الوصول اليه ، لان العدل غاية ومقصود ، لذا سعى الإمام الى تشكيل السلطة العادلة ، التي من اولوياته العدل المتكامل ، لذا ركز الإمام على احداث تغيير اجتماعي ، ونعني بها تطبيق العدالة بين طبقات المجتمع ، وتحسين مستوى المعيشي ، الذي ينعكس بدوره الى تحقيق الرفاه الاجتماعي ، لم يكن غايته خزن المال والمجتمع يعاني الفقر فقد كان يوزع العطاء على الناس كلما وصلت له اموال ، اذ وزع على الناس في عام واحد ثلاثة اعطية ثم قدم عليه خراج أصفهان فقال :أيها الناس اغدوا فخذوا فو الله ما أنا لكم بخازن ، ثم أمر ببيت المال فكُنس ونضح ، فصلى فيه ركعتين ثم قال : يا دنيا غري غيري ، ثم خرج فإذا هو بجبال على باب المسجد فقال : ما هذه الجبال؟! - فقيل : جيئ بها من أرض كسرى ، فقال :اقسموها بين المسلمين(31) .

وفوق ذلك كله يقرر الإمام علي بأن هناك حدا ادنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للإنسان ، فلا يجوز الاستيلاء على شيء منه وفاء بدين او خراج مستحق للدولة عند المواطنين ، وهذا الحد الادنى يتمثل في : كسوة الانسان ، صيفا

وشتاء ، وأدوات عمله في الارض ، بما فيها الدواب والعييد ... ثم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الاموال التي يعتقد عمال الخراج انها مخبأة ومستورة لدى الناس .. ويقرر منع المصادرات على الاطلاق ، سواء كان المواطن مسلما ام غير مسلم ، اللهم الا اذا تعلق الامر بأدوات القتال يستخدمها البعض في الاعتداء على الاسلام والمسلمين (32) .

كان اهتمام الإمام علي بالعدالة جعله يراقب تطبيقها وانصاف المظلومين ، وقد وضع آليات كثيرة لمراقبة سير العدالة وعدم تعرض الناس للظلم ، ناظرا بعين الاعتبار الى ان البعض يخشى ان يصرح بظلمه خوفا من الحكام وجورهم ، لذا وضع الإمام ، لذا اتخذ الإمام علي ما يعرف ببيت القصص ، وهو مكان ترمى فيه قصص اهل الظلمات ، اذ يكتب الناس الرقاع بمن ظلمهم من الولاة ويلقوها في هذا البيت (33) ، ثم يخرجها الإمام ويتم معالجة المشكلات ، ولعل هذا النظام من الانظمة التي لم تصل اليها الدول الا في وقت متأخر ، وتدل على ان العدل كان من ضروريات بناء المجتمع الذي اراد الإمام علي (ع) بناءه والتأكيد على استمراره . كما كان حريصا على حفظ كرامة الناس وصيانتها من المسألة ، لذا كان يقول : (من كانت له إلی منكم حاجة ، فليرفعها في كتاب ؛ لأصون وجوهكم عن المسألة) (34) .

لم تكن العدالة عند علي شعارا يطرحه للحصول على مكاسب او مغام ، كما هو ديدن الكثير من الاحزاب والمنظمات ، او الوصول من خلاله الى السلطة وكسب ود الناس ، مع غياب القصدية في التطبيق ، فالعدل سهلا في العبارات ، والانشاءات اللفظية ، وكذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة ، انما هو صعب ، بالغ الصعوبة ، في التطبيق المتكامل ، فقد يعرف الانسان قيمة العدل لصالح نفسه ، لا عليها . وقد يعرفها في الحلول الفردية ، لا في الحلول الاجتماعية . وهكذا ظلت قضية العدل اصعب القضايا ، على مستوى التطبيق : على النفس وعلى الآخرين سواسية (35) لذا اهتم الإمام بالتطبيق وأولاه الاهمية واشرف بنفسه على ذلك ، فقد رآه سعيد بن القيس الهمداني يوما في شدة الحر في فناء حائط ، فقال : يا أمير المؤمنين ! بهذه الساعة ؟ قال : (ما خرجت إلا لأعين مظلوما أو أغيث ملهوا) (36) .

استطاع الإمام علي ان يمزج الواقع بالمثال وان يبتعد في تطبيقاته عن حدود المنافع المادية ، فلم تحده المنافع المادية والسياسية الزائلة ، استطاع بفطرته السليمة ، وعقله الساعي الى العدل ان يؤسس لمجتمع سليم لا ينخدع بمغريات الحياة وتفاهتها ، لأنه كان على علم ان الابتعاد عن العدل ، يعني الوقوع في شرك الاستغلال والتحاسد والتباغض والتمايز والتقاتل ، وخلق الطبقيات والفوارق بين الناس ، وقد لمست الامة مشروع الإمام وتفاعلت معه وتكونت نواة التغيير وبدأ واضحا ان العدل صار منهج في حياة الناس ، وليس مجرد شعارات يطلقها الحكام لإفساد مفهومها وتشويه صورتها ، وهذا نجده واضحا عند استشهاده كيف اضطربت الناس وماجت احوالها وكيف بدت عليهم مظاهر الخوف من ضياع مشروع العدل الذي اسسه امير المؤمنين فعندما اعلن خبر وفاة علي جاء رجل باكيا وهو مسرع مسترجع وهو يقول : (اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذي فيه

أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : رحمك الله يا أبا الحسن ، كنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا . . . الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء (37) . لقد خص الرجل سياسة العدل التي لمسها من تطبيقات الإمام العادلة ، والتي هي صلب العدالة ان يجد الضعيف انه قوي وان حقه مصان ، ويشعر القوي وأياً كانت قوته انه ضعيف ويسترد منه حق الآخرين . فلا يتعدى القوي على الضعيف ، ولا يطمع الغني بسلب رغيف الفقير ، ولا يئأس الضعيف من النصرة ، ولا يخشى الفقير سلب رغيفه ، معادلة في خلق مجتمع يسوده الخير والصلاح ويتعايش فيه الناس بمختلف انتماءاتهم واديانهم والوائهم ، لأنه مجتمع السلام والحب والجمال ، الذي تخلقه العدالة .

لم يكن مشروع الإمام في تطبيق العدالة ، خاضعا لنوازع شخصية ، يريد ان يحقق ذاته من خلاله ، ليسد نقصا اجتماعيا ، او هو طموح التسلط والحصول على المنافع ، التي يحاول الحكام من خلالها رفع شعارات العدالة في الوصول الى غاياتهم ومراميمهم ، لقد نظر الإمام الى العدالة على انها ضرورة من ضرورات الحياة وغاية يسعى الحكام الى تحقيقها اذ ان الحاكم الذي ليس له برنامج اصلاحيا ، تكون العدالة من اولوياته ، انما هو حاكم ظالم لا يمكن للامة قبوله . فنجدد يلخص لنا الغاية من السلطة في امرين مهمين ، ودونهما تصبح السلطة غاية بذاتها ، لا وسيلة لتحقيق غايات اوجدت السلطة من اجلها ، اذا قال لابن عباس حين دخل عليه وكان الإمام يخصف نعله : (ما قيمة هذا النعل ؟ فقال ابن عباس لا قيمة له ، فقال (ع) لهي احب الي من أمرتكم الا ان اقيم حقا او ادفع باطلا ...) (38) .

يتضح مما سبق ان الإمام علي طرح مشروع العدالة الاجتماعية في كافة صورها ، واختار الولاة العاملين على تحقيقها ، كما فعل هو في برنامجه ، ولم تكن شعارات ترفعها السلطة ، لتحقيق غايات معينه ، وقد كان الإمام علي على يقين بأن التغيير يحدث بعد ان يشعر الناس بضمان حقوقهم وان القوة والضعف مرهون بقدرة السلطة على حفظ حقوق مواطنيها بعيدا عن المحسوبية والمحاباة ، او على اساس الانتماء او التمايز الطبقي ، والاختلاف المذهبي او العرقي ، غاية الدولة الوصول بمواطنيها الى التعايش السلمي ، والتسامح والشعور بالمسؤولية ، بعد ان يلمس المواطن العدالة تطبيقا واقعيا ، لا شعارات سلطوية . لذا جسد علي بن ابي طالب انطلاقا من ايمانه بضرورة ان يكون الانسان كريما عزيزا ، محترم الحقوق ملتزما بالواجبات ، ان يشيع العدالة الاجتماعية منهجا وتطبيقا .

الهوامش :

¹ الإمام علي ، نصح البلاغة ، تحق محمد عبده ، ج2 ، ص 217 .

- ² ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج 3 ، ص 1108
- ³ الكليني ، الكافي ، ج 8 ، ص 69 .
- ⁴ الإمام علي ، نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 51 .
- ⁵ المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 6 .
- ⁶ الليثي ، عيون الحكم والمواعظ ، ص 450 .
- ⁷ الإمام علي ، ، نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 93 .
- ⁸ ابن ابي الحديد ، شرح نصح البلاغة ، ج 17 ، ص 145 .
- ⁹ الإمام علي (ع) ، نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 67 .
- ¹⁰ ابن ابي الحديد ، نصح البلاغة ، ج 2 ، ص 203 .
- ¹¹ نصح البلاغة ، ج 2 ، ص 188 ؛ الكليني ، الكافي ، ج 1 ، ص 411 .
- ¹² نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 72 .
- ¹³ ابن ابي الحديد ، شرح نصح البلاغة ، ج 17 ، ص 44 .
- ¹⁴ نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 85 .
- ¹⁵ ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج 42 ، ص 489 .
- ¹⁶ نصح البلاغة ، ج 2 ، ص 218 .
- ¹⁷ المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 84 ؛ الحراني ، تحف العقول ، ص 126 .
- ¹⁸ ابن ابي الحديد ، شرح نصح البلاغة ، ج 3 ، ص 31 .
- ¹⁹ نصح البلاغة ، ج 1 ، ص 89 .
- ²⁰ القاضي النعمان ، شرح الاخبار ، ج 1 ، ص 373 ؛ ابن ابي الحديد ، ج 1 ، ص 269 .
- ²¹ ابن ابي الحديد ، نصح البلاغة ، ج 17 ، ص 85 .
- ²² الطوسي ، الامالي ، ص 729 .
- ²³ سيد قطب ، ص 161 .
- ²⁴ الثقفي ، الغارات ، ج 1 ، ص 83 .
- ²⁵ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج 3 ، ص 399 .
- ²⁶ الثقفي ، الغارات ، ج 1 ، ص 69 .
- ²⁷ المصدر نفسه ص 69 .

28 المصدر نفسه ، ص 70 .

29 جاسم، علي بن ابي طالب سلطة الحق، ص 216-217.

30 ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج 2 ، ص 200 .

31 الثقفني ، الغارات ، ج 1 ، ص 83 .

32 عمارة، الفكر الاجتماعي لعلي بن ابي طالب، ص 38-39 .

33 العسكري ، الاوائل ، ص 142 ؛ القلقشندي ، صحح الاعشى ، ج 1 ، ص 137 .

34 المناوي ، فيض القدير ، ج 5 ، ص 430 .

35 جاسم ، علي بن ابي طالب سلطة الحق ، ص 216.

36 المجلسي ، بحار الانوار ، ج 40 ، ص 113 .

37 الكليني ، الكافي ، ج 1 ، ص 454-455 .

38 نهج البلاغة ، ج 1 ، ص 80 .

المصادر والمراجع :

- ابن الأثير ، عز الدين ابن الحسن بن أبي كرم (ت 630هـ) .

1. الكامل في التاريخ ، دار صادر (بيروت 1386هـ/1966م) .

- الثقفني ، أبو اسحاق محمد الكوفي (ت 283هـ) .

2. الغارات ، تحقق جلال الدين المحدث (ايران ، د . ت) .

- ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت 655هـ) .

3. شرح نهج البلاغة ، تحقق محمد أبو الفضل ابراهيم ، البايي الحلبي

(مصر 1378هـ/1959م) .

- الحرائي ، ابن شعبة الحسن بن علي بن الحسين (تق 4هـ) .

4. تحف العقول ، تحقق علي أكبر غفاري ، جماعة المدرسين (قم 1404هـ) ، ط 2.

- الطوسي ، ابو جعفر بن محمد بن الحسن (ت 460هـ) .

5. الامالي ، دار الثقافة (قم ، 1414هـ)

- ابن عبد البر ، محمد بن احمد الاندلسي (ت 463هـ) .

6. الاستيعاب ، تحق محمد علي محمد البجاوي ، دار الجيل (بيروت 1412هـ) .
- ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571هـ) .
7. تاريخ مدينة دمشق ، تحق علي شبري ، دار الفكر (بيروت 1415هـ / 1995م) .
- العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله (ت 395هـ) .
8. الاوائل ، دار البشير ، (طنطا ، 1408) .
- الإمام علي (عليه السلام) .
- 9 - نهج البلاغة ، تحق محمد عبدة ، دار النهضة (قم ، 1412هـ) .
- القاضي النعمان ، ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور (ت 363هـ) .
10. شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار ، النشر الاسلامي (قم ، 1414هـ) ط 2 .
- القلقشندي ، ابي العباس احمد .
11. صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، دار الكتب المصرية (القاهرة ، 1340هـ / 1922م) .
- الليثي ، علي بن محمد الواسطي (تق 6)
12. عيون الحكم والمواعظ ، تحقبق الشيخ حسين الحسيني ، دار الحديث (د . ت) .
- الكليني ، ابو جعفر محمد بن يعقوب (ت 329هـ) .
13. الكافي ، تحق علي أكبر غفاري ، دار الكتب الاسلامية (طهران ، 1363هـ) ط 5 .
- المجلسي ، محمد باقر (1111هـ) .
14. بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار ، تحق ، السيد إبراهيم الميناجي
ومحمد الباقر البهبوي ، مؤسسة الوفاء (بيروت ، 1403هـ / 1983م) .
- المناوي ، محمد عبد الرؤوف (ت 1031هـ) .
15. فيض القدير شرح الجامع الصغير ، تحق احمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية